عزيمة أنثى

هروة نصار

جلست على المائدة تنتظر لحظة وصوله، لقد أعدّت له أشهى الأطعمة التي يُفضِّلها، وأضاءت الشموع كما زيّنتْ المكان بالورود، وارتدت أجمل ثيابها، كالجارية التي تنتظر سيّدها، أرسلت ابنتها الصغيرة لتمكُث الليلة في بيت جدها، لكي تستطيع هي الاختلاء به، جلستْ شاردة في ذكرياتها معه، بعد أن فُتحت أمامها نافذة تُطِل منها على الماضي، بداية من أول لحظة وطأتْ قدماه منزل أبيها؛ ليشاهد العروس ويرى هل تصلح له أم لا؟ حتى أعلن موافقته أنها مناسبة له تمامًا، تذكّرت عندما كانت تتوسّل والدها أن يُمهلها قليلًا، فهي لا تزال متردِّدة، ولا تستطيع معرفة حقيقة مشاعرها تجاهه كما أنها لا تعرفه حق المعرفة، لكن لم ينصتْ لها أحد، وكأن الآذان صُمَّت مِن حولها فهو كما يقول الجميع (كامل الأوصاف)، لا ينقصه شيء.

مهندس، لديه منزل وسيارة، حتى عندما طلبت أن تعمل، قُوبلتْ بالرفض من الجميع وأوّلهم والدها وزوجها المستقبلي، وها هي بعد ثلاثة أشهر من زيارته الأولى، تجلس بجواره في حفل زفافهما، كانت تتأمَّل مظهره الجذَّاب، ونظراته العاشقة، ثم بدأت تُوزِّع نظراتها على الجميع، تشعر أنها في حلم، ولا تُصدِّق أنها وسط هذا الجمع الكبير حقًا، وعندما تُفكر في كل شيء مرّ بحياتها الماضية، ينتابها الخوف مما هو قادم، كأي إنسان بطريقه لمعرفة المجهول، شعوراً غريباً يُراودها، لا تعلم ماهيته هل هو خوف.. قلق.. فرح.. خجل أم ماذا؟

فهي ليست قادرة على استيعاب فكرة ــأن الليلة ستختلف على إثرها حياتها بالكاملــ وأنها ستصبح زوجة لرجل غريب عنها، لم تكن تعلم بوجوده قبل شهور قليلة؛ ظلّت تحاول أن تندمج في الحفل، وتترك قلقها وأفكارها جانبًا... "لابد أن تحاول التركيز فالليلة هي ليلة عرسها... تلك التي تنتظرها كل فتاة، يجب ألا تفسدها بكثرة الأفكار المُقلقة، وأن تفتح للتفاؤل طريقًا إلى قلبها، فهي ستبدأ حياة جديدة مع رجل يحبها، أو هكذا يقول... فلمَ لا تحاول الاستمتاع بهذا التغيير الجديد؟ وتلك الحياة التي ستبدأها معه" هكذا كانت تقنع نفسها.

ظلت "ريم"صامتة كالبكماء حتى سمعت صوت زوجها يقول:

- ما بكِ حبيبتي.. لمَ أنتِ صامتة هكذا؟!

نظرت له بخجل وقالت: لا شيء .

نادر: هل هناك ما يشغلك؟

ريم بتوتر: لا، فقط لا أحب الصخب الشديد .

نادر بابتسامة: لا تقلقي حبيبتي، أوشكنا على الانتهاء، وسنغادر قريبًا لبيتنا حيث الهدوء ....

شعرت "ريم" بوخز في قلبها بعد أن قال لها ذلك، يبدو أنه أراد أن يطمئنها بتلك الكلمات، لكنه جعلها تتوتر ويزداد قلقها، وكأنه أراد أن يطفئ النيران بقطرات من "البنزين"..

فكيف ستتعامل معه؟ كيف سيكون لون ليلتها الأولى؟

تلك الليلة التي تحلم بها كل فتاة وترسم ملامحها في خيالها!!!

شردت في ليلتها، وتخيّلت نفسها مع زوجها الذي حتمًا، سيحملها من أمام باب المنزل ويدخل بها، ثم يساعدها في نزع تاجها، وتبدأ حياتهما بالصلاة، وبعد ذلك يُراقصها على أنغام موسيقى حالمة، لا يسمعها أحد سواهما، وهو يطرب أذنيها بكلمات الحب والعشق والغرام، حتى يذوبا سويًا؛ ستصبح تلك الليلة هي الليلة التي تتوج حبهما وتكون البذرة التي ستنمو بعد ذلك؛ لتُشكل الحياة الجميلة التي تنتظرهما؛ شعرت بالراحة الشديدة بعد شرودها مع أحلامها، وبدأت تنظر لزوجها وهي تشعر بالسعادة، وتحدث نفسها بأنها ستحاول إسعاده دائمًا، كما أنها يجب أن تتقبل حياتها الجديدة مهما كانت غريبة عنها، وتُؤسِّس بيتًا وأسرة سعيدة معه، انتهى الحفل واستقل العروسان السيارة، وتوجها إلى منزلهما الجديد وسط زفة كبيرة من الأهل والأصدقاء، انتهت أسفل البناية، وصعد العروسان بمفردهما كانت تشعر بخجل وتوتر شديدين، لكنها كانت تحاول أن تتخلّص من تلك الأحاسيس .

وصل المصعد إلي الطابق الخامس، وخرج العريس يسبق عروسته؛ ليضع المفتاح ويفتح لتلك العصفورة عش الزوجية الجديد؛ فوقف نادر ممسكًا بمقبض الباب وهو يشير لها بالدخول قائلًا:

- تفضلي يا عروس، أنرتِ بيتك.

نظرت له، وشعرت بالصدمة الأولى فهو لم يحملها بل اكتفى بأن أشار لها بالدخول، لكنها طردَتْ الفكرة من رأسها سريعًا،

وقالت لنفسها:

- ليس مهمًا أن يفعل ذلك، كل إنسان له أسلوبه، يكفيني حبه واحترامه.

دخلت المنزل وهي تشعر بالخجل، تسير ببطء وكأنها تسير فوق مسامير،

ولم ترفع عينيها عن الأرض، لم تكن تعرف كيف تتصرف، حتى وجدته يقترب منها ويرفع وجهها؛ لتواجه عيناها عينيه ويقول:

- حبيبتي، أنتظر هذه الليلة منذ أوّل لحظة رأيتك فيها، لذا لا أريد خجلًا، هيّا إلى الغرفة؛ ثم أردف: قومي بتغيير ملابسك، وسألحق بكِ بعد قليل؛ فنظرت له نظرة صامتة، لا تحمل أي تعابير، ثم توجهّت للغرفة وقامت بتغيير ملابسها في صمت، وارتدت قميصها، وذهبت لتخرج إسدال الصلاة من الخزانة، لكنها فوجئَت بزوجها يقتحم الغرفة عليها دون استئذان، ويقترب منها وهو يتغزل في مظهرها بأنفاس متسارعة، ووجه قد تحول لكتلة من الجمر، وهي مرتدية ذلك القميص المثير، الذي أظهر كل مفاتنها.

تنبهت أنها لم تكن ترتدي الروب الخاص به؛ فوضعت يدها بشكل عفوي على جسدها، وكأنها أمام من جاء الآن ليغتصبها، لكنه لم يترك لها المجال، بل جذبها إلى الفراش سريعًا دون أي مقدمات وكأنه أسد جائع، ووجد تلك الغزالة أخيرًا بعرينه، لم يكن متفهمًا لأهمية تلك الليلة عند كل فتاة، بل أراد فقط أن يأخذ ما يريد، ما يشعره أنها ملكه، دون أن يفكر فيما تريد هي.

تبخَّرت الأحلام في تلك الليلة،وهي تصرخ من الألم، بسبب قسوة ذلك الجلاد وعنفه، دون أي محاولة لأن يكون لطيفًا معها، أو أن يرحمها من ذلك الصراخ، هو فقط يريد أن يحصل على متعته، لا يهم أي شيء آخر .

مرت تلك الليلة عليها ببطء، وكأن عقارب الساعة تتسكَّع في دورانها، وتبعتها ليالي كثيرة بنفس القسوة والعنف، دون وجود للحب، أو الكلمات الجميلة، أو الملاطفة، ويبدو أن الحب عند بعض الرجال مثل قناع يسقط في هذه الليلة، لتبدو وجوه حقيقية شهوانية، حيث أصبح بداخلها يقينًا أن أسلوب زوجها هذا هو الواقع، وأن المشاعر والحنان والحب مجرد خيال، ولا

وجود له سوى في الأفلام، لذا حاولتْ تقبُّل شخصيته، وأهملتْ احتياجاتها ومشاعرها، لطالما أقنعتْ نفسها أنه الرجل، ويجب عليها أن تسعده، وتلبي رغباته، حتى أصبحت مع مرور الوقت كالتمثال، لا تشعر بشيء، ولا ترغب في شيء، فقط تعيش، وتتنفس، وتنفذ ما يُطلب منها، حتى رزقها الله بابنتها "فرح" فكانت هي الفرحة بالنسبة لها، يا ألله كم تعشق هذه الصغيرة، لقد أعادتها للحياة بعد أن كانت دفينة في قبرها، لقد عاد النبض من جديد في قلبها وبدأت تعرف معنى الحب مع صغيرتها .

مرت السنوات مع زوجها وابنتها وهي تعيش حياتين منفصلتين، حياة مع طفلتها مليئة بالسعادة والبهجة، وحياة مع زوجها مليئة بالقسوة وعدم التفاهم، كانت تتمني لو تقترب القلوب كما تقترب الأجساد، أن يجلسا سويًا فيستمع لها، وتستمع له، لكن اللغة الوحيدة التي كان يُتقنها هي التجاهل، فهو يتجاهل كل شيء يخصها من بداية زواجهما، حتى احتياجاتها، مشاعرها، وعندما تحاول الحديث معه، يشير لها أن تصمت، أو يسخر منها كأنها لا تعرف كيف تتحدث؟

ظلت تعيش في بيتها صامتة عن مشاعرها، وحزنها، حتى في دموعها، لا تجد السكينة والمودة والرحمة التي وُعِدت بها من الرحمن، حتى وصل به الأمر أنه قام بضربها في يوم من الأيام، بسبب أنها طلبت منه أن تخرج معه لشراء بعض الأغراض لابنتهما، فرفض وعندما ألحَّت في طلبها، وجد أن الرد المناسب صفعة قوية على الوجه، لتتعلم حدودها ولا تتعداها، فالكلمة يجب أن تُقال مرة واحدة؛ وهكذا زاد عليها جرحًا جديدًا، لكنه كان مختلفًا هذه المرة، فلم تتوقع يومًا أن يصفعها بعد كل هذا، لقد نستْ بسببه أنها أنثى لها مشاعرها واحتياجاتها التي يجب أن تُلبى، بعد أن جعلها تفقد الثقة في

نفسها وشخصيتها وأصبحت تابعةً له، مثل بلدة لا تجد حيلة سوى أن تتبع من احتلَّها دون رأي منها، وليس لها حرية اتخاذ القرار، ولا حتى حرية الرفض.

هكذا كانت تلك الليلة الأخيرة التي تحتمل فيها كل هذا، فلم تكن تلك الصفعة لتأديبها، بل لإفاقتها، تذكرت عندما نظرت له وقالت:

- أريد الطلاق.

وتذكرت أيضًا رده وهو يضحك بسخرية ويقول:

- طلاق، لن يحدث، انظري لنفسك، هل تعتقدين أن لكِ أي فرصة في العيش خارج جدران هذا المنزل؟ اعلمي أنكِ لن تحصلي مني على أي شيء، وابنتي لن أعطيها لكِ، وأهلك لن يحتملوكِ، يكفيهم زواج أختك الصغرى.

ثم نهض عن المائدة وقال لها وهو يدفعها بيده في رأسها:

- تعقَّلي، حتى لا ترين وجهي الآخر.

جلست صامتة وهي تفكر في كل شيء، ابنتها، وظروف عائلتها التي لن تستطيع مساعدتها، وعجزها في أن تعول ابنتها.

كانت قد وصلت حدّ الجنون، لم تعد تطيق العيش معه، لكنها لا تعلم كيف ستستطيع النجاة دونه؟ لذلك رضخت واستمرَّت في العيش معه وهي فاقدة الروح تعيش فقط من أجل ابنتها حتى تأتيها الفرصة المناسبة لتتمرد على تلك العيشة المميتة لها.

أفاقت من شرودها على صوت المفتاح يُدار في باب المنزل، ثم سمعت صوته وهو يهتف قائلًا:

- هل العشاء جاهز؟

نهضت من مكانها في استقبالهِ.

وأجابت: نعم ، وفِي انتظارك .

فدلف يشاهد كل الترتيبات التي قامت بها ويتأمّل مظهرها، ثم ابتسم بسخرية وقال:

- هل هناك مناسبة لكل هذا؟

فأجابته:

نعم، اجلس وسأخبرك.

جلس يتناول العشاء دون أن يبالي بمعرفة سر هذا التغيير، وجلست هي على الطرف الآخر من الطاولة، تنظر إليه ثم قالت أخيرًا:

- الآن، أنا سأتحدث وأنت ستستمع.

همَّ بالحديث، لكنها رفعت يدها وقالت:

- قلت أنا سأتحدث وأنت ستستمع .

صمت وهو يشعر بالذهول، متسائلًا في نفسه عمّا حدث؟ !!! فهي لم تجرؤ من قبل على محادثته بهذه الطريقة، كيف فعلت؟!!

بينما عاودت هي الحديث قائلة:

- لقد تزوجتك وأنا لا أعلم من أنت، ظنَّت عائلتي أنك رجل تتسم بالأخلاق، من عائلة كريمة، توقعت أنك إنسان يعلم كيف يعامل الأنثى فمن المفترض أنك شخص مثقف، لكن ليس كل متعلم مثقف، لقد كنت شخصًا أنانيًا، لا تفكر سوى في شخصك، واحتياجاتك فقط، لم تفكر بي مرة واحدة، لم تهتم لأمري، لم تحاول أن تراعي مشاعري، بل كنت

تتعامل معي كأني دمية، تحركها وقتما تريد، وتلهو بها مثلما تشاء.

صمتت لثانية ثم استأنفتْ كلامها قائلة:

- فات أوان الحديث، الآن أريدك أن تعلم، ماذا فعلتُ؟ أتعلم طوال السنة الماضية، ماذا كنت أفعل؟

حدَّق بها، ثم صاح قائلًا:

- ماذا تقصدين؟ ثم تابع ماذا فعلتِ؟

ضحكت هي عاليًا وقالت:

- يا لك من غبي، تعتقد أنك تستطيع أن تظل مسيطرًا طوال الوقت، تعتقد أنك عندما تتعامل معي بالقسوة، هكذا سأخضع لكَ، كما قلت، أحمق؛ ثم تابعتْ قائلة: أتذكر العام الماضي عندما طلبت منك الانفصال، أتذكر ماذا فعلت؟ وماذا قلت لي؟ هل تعتقد أني كنت سأقبل بما فعلته؟ هل صور لك خيالك أني سأقف مكتوفة الأيدي؟، وأعلن عجزي، لا لم يحدث، أتعلم ماذا فعلت؟ لقد وفرت لي ولابنتي ما نحتاجه، دون الاستعانة بك، لقد ظللت أعمل طوال السنة الماضية من المنزل، أنسيتَ أني خريجة ترجمة؟ أنسيتَ أني أستطيع العمل والتكفُّل بابنتي وبنفسي؟ اليوم أريدك أن تعلم أني لم أعد بحاجة لأموالك، ولا لبيتك، لقد وفرت السكن والعمل الدائم، أما أنت فلم تربح أي شيء، حتى احترامي لكَ فقدته .

قالت كلماتها ونهضت لتغادر وهي تقول:

- ولتعلم لقد ذهبت للقضاء لطلب الطلاق، و"فرح" ستظل معي بحكم القانون، وأنت ستبقى وحيدًا، لا تجد من تُمارس عليها سلطانك، أتمنى أن تكون سعيداً بما وصلنا إليه، ولتعلم أنك لم تكن زوجًا لي قط. لا

حبيبًا..... ولا سندًا..... ولا أمانًا..... والآن أنا اخترت أن أحيا سعيدة، ولن أقبل غير ذلك، فأنت لم تستطع أن تكسر عزيمتي، وداعًا.

قالت كلماتها وغادرت مسرعة حتى لا تترك له الفرصة للرد أو محاولة إيقافها، أما هو فقد كان يشعر بالدهشة الشديدة، وكأن نظام هذا الكون قد أُصيب بالخلل، فقد تأهّب العصفور واستعدّ للطيران، ولم يعد يهاب مواجهة الأسد، كما لو أن النجوم غادرت السماء وتركتها في ظلمتها وعتمتها، فلم يكن يتوقع أي شيء مما قالته، لم يصدق أنها فعلت كل هذا دون أن يشعر، كيف؟... متى؟... أين؟ كان يحاول أن يُكذب ما سمع، ويقنع نفسه أنها كاذبة، وأن كل هذا مجرد هراء لا يعني شيئًا، لكنها غادرت بالفعل، ولَم يعد هناك مجالًا للشك أنها فعلت كل هذا، غادرت المنزل مخلفة وراءها تلك الحياة، دون لحظة ندم واحدة، لقد استعادت حياتها، وروحها، لقد شعرت بالسعادة من جديد، بعد أن تحررت من تلك القضبان، لتشعر بأنها إنسانة لها رأيها وحريتها وكرامتها، غادرت لحياة جديدة مليئة بالأمل والحب والتفاؤل، فيكفي أن تكون ابنتها في حياتها لتعرف معها طعم السعادة ..

وبالفعل بدأتا حياة جديدة معًا في منزلهما الصغير الجديد، الذي كان يمتلئ بالحياة والحب والسعادة، فهي أخيرًا حصلت على حريتها، ولَم يعد هناك ما يعيقها على أن تكون أمًا جيدة، وأنثى سعيدة .

.....

"لا تستهِن بإرادة الأنثى، فعزيمتها وحدها تستطيع أن تحطم الجبال، وتتجاوز كل الصعاب، تستطيع أن تلمس القمر، فلا شيء يضاهي عزيمتها "

تمت بحمد الله.